المحاضرة 10: فن المقامات في العصر الحديث

مفهوم المقامة:

سمّيت بالمقامة لأنّها تعني في اللّغة المجلس الذي يجلس الناس فيه. وجاء في لسان العرب: "المقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس". كانت تلقى أيضا في المجلس، فالأديب يجلس في صدر المجلس، أو. أحيانا إلى جانب أحد الأعيان كالقاضي.

أما اصطلاحا فقد أجمع النقاد على أنّها حكاية مسجوعة، لها راو واحد، وبطلها واحد مُكد ومتسول ومحتال، تقوم على أحداث طريفة متعلقة بمواضيع مختلفة (دينية وأدبيّة ومغامرات مضحكة تتضمن شكل من أشكال النقد الساخر)

المقامة متفاوتة الحجم تجمع بين النثر والشعر، بطلها رجل وهمي مخادع وآفاق، ومغامر لا يستقر في مكان واحد، يعيش على خداع الآخرين، فيسرق أموالهم بعد أن يسرحهم بفصاحته وشاعريته، وهو شخصية فكاهية دائمة الحيوية والنشاط.

المقامات في الأدب العربي:

-مقامات بديع الزمان الهمذاني (357/398هـ) وهو مؤسس هذا الفن النثري.

راوي مقاماته هو عيسى بن هشام، الذي يظهر بصفة تاجر واسع الحيلة، وكثير السفر، م جعله يكسب تجارب عدّة. أمّا بطله فهو أبو الفتح الإسكندري، وهو رجل فصيح، وأفّاق في كلّ مرّة في كلّ بلاد بأفق جديد، وهو القائل:

اسكندرية داري *** لو قرّ فيها قراري

لكن بالشام ليلي *** وفي العراق نهاري

هو رجل متحايل، وشاعر رقيق وناثر مفوّه يغلب لبّ سامعيه بحكاياته المؤثّرة المسجوعة، التب يعتني فيها بتوظيف ألوان مختلفة من الأساليب البلاغيّة، كما تشمل على ثروة معجمية وحكم وتجارب وثقافة متنوعة.

يحكي بديع الزمان أخبارا عن الشعراء، وتقدّم مقاماته معلومات حول تاريخ الأدب والنقد الأدبي، مستشهدا من القرآن الكريم والحديث الشريف، والشعر القديم والامثال القديمة.

ينهي مقاماته بمفجاة تبهر القارئ كما تبهر شخصيات المقامة نفسها التي تدلّ على عبقرية الرّجل. هكذا كانت مقاماته مجلس أدب وأنس ومتعة، مراعيا فيها بساطة الموضوع، وأناقة الأسلوب، فكانت معينة لمن يريد التّمرن على كتابة النثر أو الشعر.

-أبو القاسم الحريري (446/515هـ): قيل أنّه تفوّق على أستاذه، فقد طوّر هذا الفن وأجاد فيه، إذ اثار ظهور مقاماته ضجّة في العراق والأندلس وفي العالم الإسلامي. راوي مقاماته كان الحارث بن همّام، وقد اخذ هذا الاسم من حديث نبوي مفاده أنّ (أصدق الأسماء حارث وهمّام)، أمّا بطلها فهو أبو زيد السّروجي، رجل فصيح يمتلك من البلاغة وجمال الخطاب ما يجعله قادرا على خداع النّاس، وشاعر يتباهى بشاعريته:

ورأس مالي سحرُ الكلام الذي *** منه يصاغ الشّعر والخُطب

أغوص في لُجّة البيان فأخ *** تار اللآلئ منها وانتخب

وآخذ اللّفظ فضّة فإذا *** ما صُغته قيل إنّه ذهب

تتناول مقامات الحريري مواضيع جادة وهادفة بالرغم من طابعها الفكاهي، حيث أنّها تشمل على الحكم والأمثال، والشعر مما يدلّ على المستوى المعرفي الراقي للحريري.

فنّ المقامات إذن هو أحد الأجناس الأدبية العريقة في الأدب العربي، وقد بلغ ذروته في العصور الكلاسيكية مع أعلام مثل بديع الزمان الهمذاني والحريري. لكن في العصر الحديث (من القرن التاسع عشر إلى اليوم)، شهد هذا الفن تحولات مهمّة.

المقامات في العصر الحديث

1. الإحياء والتجديد

مع حركة النهضة العربية، حاول بعض الأدباء إحياء فن المقامات بروح جديدة، مثل:

-ناصف اليازجي (1800/1871هـ): الذي جمعت مقاماته في كتاب "مجمع البحرين" ضمن عدد مهما من المقامات. حين قام يكتب مقاماته كان في ذهنه محاكاة الحريري والنسج على منواله شكلا ومضمونا، على الرغم من الفارق الزمني الذي يفصل بينهما "ولما كان اليازجي همّه المحاكاة لا الابداع، فمقاماته لم تأت بجديد في هذا الفن، ولم تستطع أن تدخل عليه تطورا بارزا واضحا". أعاد كتابة المقامات بأسلوب يحاكي القدماء مع الحفاظ على اللغة الكلاسيكية.

محمد المويلحي: في كتابه حديث عيسى بن هشام، حيث استخدم شكل المقامة لانتقاد المجتمع بأسلوب ساخر.

2. التحول في الشكل والمضمون

لم يعد الالتزام الصارم بالسجع والبناء التقليدي ضروريًا، فحدث تقليل الزخرف اللغوي المعقّد، والتركيز على القضايا الاجتماعية والسياسية بدل الاستعراض البلاغي فقط، كما عمل رواده على إدخال عناصر من السرد القصصي الحديث.

3. التداخل مع الأجناس الأدبية الأخرى

في العصر الحديث، تداخلت المقامة مع:القصة القصيرةو الرواية والمقال الأدبي، حتى أصبحت أحيانًا أقرب إلى نصوص سردية ساخرة منها إلى المقامة التقليدية.

4. تراجع الانتشار

رغم محاولات التجديد، تراجع حضور المقامات لصالح أجناس أكثر مرونة مثل الرواية، التي عبّرت بشكل أفضل عن تعقيدات الحياة الحديثة.

وفي الأخير يمكن القول بأن فن المقامات في العصر الحديث، لم يختف، بل تغيّر دوره من فن بلاغي استعراضي إلى وسيلة نقد اجتماعي وأدبي، لكنه لم يعد يحتل المكانة المركزية التي كانت له في التراث القديم.

الخصائص الفنية لفن المقامة:

- الهزل والمرح اللذين يدفعان القارئ أو السامع إلى الإغراق في الضّحك
- اشتمالها على الحيلة، والبراعة في كيفية عرضها، والباسها لباس قصصي تصويري نفسي.
- حيل المكدين: وهذا اللون من الأفكار يمثّل المادة الرئيسية التي يقوم عليها مضمون المقامة.
- الوعظ الذي يعدّ من أهم خصائها، وهو من الأفكار التي كلف بها كتّاب المقامة كلفا شديدا لاسيما الكتاب الذين جاؤوا بع البديع الذي لم يكتب سوى مقامتين موضوعهما الوعظ.
- النقد الاجتماعي: إذ نجد الكثير من المقامات ذات مواضيع اجتماعية.
- الوصف: فأغلب المقامات تناولت الوصف وعالجته، ومن بينها مقامات البديع في المقامة الخمرية التي حاول أن يعرض فيها لوصف الخمر، يقول فيها على لسان فتاة من فتيات الحان وهي تخاطب عيسى بن هشام بعد ان سألها وأصحابه عن خمرها:

خمر كريقي في العذوبة **** واللّذاذة والحلاوة

تذر الحليم وما عليه **** لحلمه أدنى طلاوة

- تناولها طرائف ادبيّة منها المقامة البشرية التي تعدّ من روائع قصص المقامات.
- ابتدائها بعبارات مثل "حدثنا" أو "حكى" أو "روى" أو ما في مثلها.
- يستخدم كتاب المقامة في أساليبهم لغة متينة وأنيقة أحيانا، وغريبة ثقيلة أحيانا أخرى، فهم يعتنون بالألفاظ أكثر من عنايتهم بالموضوع.
- كثرة الألفاظ الدالة على الأشياء المحسوسة.

مراجع المحاضرة:

*عبد المالك مرتاض، فن المقامات في الأدب العربي، الدار التونسية للنشر، ط2، تونس، 1988.

* عبد الله الركيبي تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر.

*عمر بن قينة، فن المقامة في الأدب العربي الجزائري، دار المعرفة ، الجزائر.